التربية على المواطنة

التربية على المواطنة*

أولاً . تحديد المصطلحات «المواطنة، الوطنية، التربية على المواطنة».

ثانياً . من قيم التربية على المواطنة في تراثنا الأدبي.

ثالثاً . ملاحظات على بعض جوانب التربية على المواطنة:

1. جزئية النظرة إلى أهداف التربية على المواطنة.

2. القصور في تقديم التربية على المواطنة في مناهجنا التربوية.

3. النقص في الكفايات الأساسية اللازمة للمواطنة.

4. سيطرة التربية المستبدة.

5. غياب التنسيق بين الجهات المعنية.

رابعاً . من آليات التنفيذ.

* بحث ألقي في مؤتمر مؤسسة الفكر العربي ببيروت عام 2006.

التربية على المواطنة

إن قضايا التربية على المواطنة متعددة، ولا أدعي في محاضرتي هذه أنني في صدد حصرها، وإنما سأقف على بعضها متمثلاً في تحديد المصطلحات، إذ سأقف على مصطلحات «المواطنة والوطنية والتربية على المواطنة»، ومن ثم سأبدي بعضاً من قيم التربية على المواطنة في تراثنا العربي، وبعضاً من الملاحظات على بعض جوانب التربية على المواطنة، ومن هذه الملاحظات جزئية النظرة إلى أهداف هذه التربية، والقصور في تقديم التربية على المواطنة في مناهجنا التربوية، والنقص في الكفايات الأساسية اللازمة للمواطن، وسيطرة التربية المستبدة، وغياب التنسيق بين الجهات المعنية، وفي القسم الرابع والأخير ثمة وقفة على بعض من آليات التنفيذ.

أولاً. تحديد المصطلحات

سأل ملك الصين قديماً الفيلسوف «كونفوشيوس»: «أريد أن أصلح الدولة فَبِمَ أبدأ؟» فأجابه الفيلسوف: «ابدأ بإصلاح اللغة وحدّد المصطلحات».

ولكم كانت هذه الإجابة دقيقة وحكيمة! ذلك لأن تحديد المصطلحات يساعد على إيجاد اللغة المشتركة، فهماً للمضمون، ووضوحاً للرؤية، وتبياناً للمسار، وتمثلاً للأهداف.

ومن الملاحظ في مجال التربية على المواطنة أنه ما يزال ثمة لبس في المفاهيم وتداخل بينها. والسؤال الرئيس: ما المواطنة؟ وما الوطنية؟ وما التربية على المواطنة؟

لقد وردت تعريفات كثيرة للمواطنة، ومن هذه التعريفات:

. المواطنة هي العلاقة التي تربط بين المواطنين في الوطن الواحد من جهة، وبينهم وبين الدولة من جهة أخرى، وتشمل تلك العلاقة الحقوق والواجبات التي تترتب على مختلف الأطراف، وكذلك الحريات والمسؤوليات.

. المواطنة هي سيادة الشعب لمصيره تصميماً وتخطيطاً وتنفيذاً ومتابعة وتقويماً ومساءَلة.

. المواطنة هي حقوق وواجبات، وممارسة لهذه الحقوق والواجبات بكل وعي ومسؤولية.

ـ المواطنة هي تحقيق للشروط وللمؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لممارسة الحرية والمساواة والعدالة في إطار دولة الحق والقانون.

ـ المواطنة هي الإقرار الفعلي لسيادة القانون وتنظيم العلاقات بين المواطنين كافة، أفراداً وجماعات، على أساس الديمقراطية والعدالة الاجتماعية. ومن أكبر دعائم المواطنة ترسيخ دولة الحق والقانون وثقافة حقوق الإنسان، وبناء مؤسسات الدولة.

. المواطنة هي الحوار بما هو تخصيب للأسئلة، وإنتاج للفكر، وتفاعل للآراء، وتبادل للرؤى، واحترام لتوجهات الآخرين، ونبذ للتعصب والكراهية، وانفتاح متزن على كل الثقافات والحوار الواعي معها.

ـ المواطنة هي وعي وممارسة في الانتماء للوطن، إذ إن المواطنة بالوعي والكيان الفاعل والإرادة، ذلك كله يجعل مصلحة الوطن والوعي بالتحديات التي يواجهها والذود عن أرضه وحماه في قمة الأولويات.

ـ المواطنة هي حب الفرد لوطنه وانتماؤه إليه، والتزامه بمبادئه وقيمه وقوانينه، والتفاني في خدمته، والشعور بمشكلاته، والإسهام الإيجابي مع غيره في حلها.

وتقوم المواطنة على أساسين جوهريين يتمثلان في المشاركة في الحكم والمساواة بين جميع المواطنين. وبتحقيق هذين الأساسين يتكون انتماء المواطن وولاؤه لوطنه، وتفاعله الإيجابي مع مواطنيه، وممارسة حقوقه، وتأدية واجباته.

وتتمثل الحقوق الأساسية للمواطنة الديمقراطية في الحقوق المدنية والحقوق السياسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. أما الواجبات فتتمثل في احترام القوانين والأنظمة، ودفع الضرائب للدولة والدفاع عنها.

وأساس تحقيق المواطنة أن يكون الانتماء إلى الوطن فوق أي انتماء آخر، فلا يجوز أن يقدم الانتماء أو الولاء السياسي لأي سلطة حزبية في الدولة على الانتماء أو الولاء لسلطة الدولة نفسها، ذلك لأن الديمقراطية هي نظام سياسي واجتماعي واقتصادي يقوم على حقوق الإنسان في الحرية والمساواة، وما يتفرع عنهما كالحق في الحرية، والحق في الشغل وتكافؤ الفرص... الخ، كما يقوم على دولة المؤسسات التي يقوم كيانها على مؤسسات سياسية واجتماعية تعلو على الأفراد مهما تكن مراتبهم وانتماءاتهم العرقية والدينية والحزبية، لأن الديمقراطية تعني أولاً وقبل كل شيء احترام حقوق الإنسان، حقوقه الديمقراطية كحرية التعبير وحرية إنشاء الجمعيات والأحزاب، وحرية التنقل، والحق في الشغل، وفي المساواة والعدالة ودفع الظلم... الخ.

وإذا كانت المواطنة هي مجموع القيم الإنسانية والمعايير السياسية والقانونية والممارسات الاجتماعية التي تمكن الفرد من الانخراط في مجتمعه والتفاعل معه إيجابياً، والمشاركة في تدبير شؤونه والحفاظ على تماسكه ووحدته، فإن المواطنة هي الحصن الحصين ضدّ ثقافة التيئيس والتثبيط والتشاؤم والسلبية والانهزامية، تفتح آفاقاً ملؤها الثقة في استشراف مستقبل أفضل، وتعمل على تشجيع المواهب المبدعة في ارتياد آفاق هذا المستقبل الأفضل.

ونخلص إلى القول إن مفهوم المواطنة يحمل في ثناياه في المقام الأول قيم الانتماء والولاء للوطن، ويحمل بالقدر نفسه معاني ترتبط بممارسة الحقوق التي يكفلها مثل هذا الانتماء في إطار الشرعية الدستورية، كما ترتبط بالواجبات والالتزامات من المواطن تجاه وطنه تترجم هذا الولاء وذلك الانتماء من خلال المشاركة السياسية الفاعلة بكل أشكالها وصورها وفاء للالتزامات الأخلاقية والقانونية والمدنية والاجتماعية.

إن مفهوم المواطنة مفهوم دينامي يتعدى حالة السكون إلى حالة الحركة، فهو يشير إلى مشاركة فاعلة من المواطن تجاه مجتمعه الذي ينتمي إليه، وهو يعني تفاعلاً راسخاً بين المواطن وأخيه يتعدى الولاءات التقليدية العائلية أو القبلية أو الطائفية أو المذهبية، ويهدف إلى تعميق

المشاركة الاقتصادية والخدمة العامة والتطوع وغيرها من القيم السامية التي يفرضها مثل هذا الانتماء.

وتتخذ المواطنة العديد من المسارات السلوكية التي تتجلى في:

. الانتماء الذي يتبدى في شعور داخلي يبعث على الولاء للوطن ولكل رموزه.

. المساواة بين المواطنين المنتمين إلى الوطن الواحد.

ـ ضمان الدولة عبر مختلف مؤسساتها جملة من الحقوق الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية لأفرادها.

. مشاركة الفرد في خدمة وطنه بما يقتضيه الظرف وتتطلبه المصلحة العامة لمجتمعه.

. اضطلاع الفرد بالواجبات تجاه الدولة.

ـ تحلي الفرد بقيم حضارية تعزز من مكانته ومكانة مجتمعه مثل قيم التضامن والتعارف والتآخي والتسامح والمساواة وقبول الاختلاف، والإنصات إلى الآخر، ونبذ مختلف أشكال العنف.

وتجدر الإشارة إلى أن تعريف مفهوم المواطنة يستلزم بالضرورة الوقوف على مفهوم الوطن والوطنية، وجميل أن نقف على هذا المفهوم من وجهة نظر بعض الأدباء والساسة، فلنستمع إلى هذا المفهوم عند الشاعر نزار قباني في قوله: «إن مفهومي للوطن والوطنية مفهوم تركيبي وبانورامي: صورة الوطن عندي تتألف كالبناء السمفوني من ملايين الأشياء..! ابتداء من حبة المطر، إلى ورقة الشجر، إلى رغيف الخبز، إلى مزراب الماء، إلى مكاتيب الحب، إلى رائحة الكتب، إلى طيّارات الورق، إلى حوار الصراصير الليلية، إلى المشط المسافر في شعر حبيبتي، إلى سجادة صلاة أمي، إلى الزمن المحفور على جبين أبي...

من هذه الشرفة الواسعة أرى الوطن، وأحتضنه وأتوحد معه، فالكتابة عن الوطن ليست موعظة ولا خطبة ولا افتتاحية جريدة يومية تتحدث بطريقة دراماتيكية عن خيوله

وبيارقه وفرسانه، وأعدائه الذين نضِجت جلودهم قبل نضج التين والعنب، (وهذه إشارة إلى قول أبي تمام:

تسعون ألفاً كآساد الشرى نَضِجت أعمارهم قبل نضج التين والعنبِ)

وعن بطولات أمير المؤمنين الذي يمد رجليه فوق جفن الردى وهو نائم، (وهذه إشارة إلى قول المتنبي في سيف الدولة:

وقفت وما في الموت شكٌ لواقفٍ كأنك في جفن الردى وهو نائمُ)

إن الوطن ليس أداة حربية فقط، ولا هو جيب أمير المؤمنين فقط، بل هو مسرح بشري كبير يضحك الناس فيه ويبكون، ويضجرون ويتشاجرون، ويعشقون ويسكرون ويصلون، ويؤمنون ويكفرون، وينتصرون وينهزمون».

وعندما يتحدث الشاعر عن وطنه يقول:

هنا جذوري...

هنا قلبي...

هنا لغتي...

وتقول الشاعرة طلعت الرفاعي:

هنا دياري... هنا أهلي... هنا لغتي من هاهنا الفجر يهدي الركب مطلعه

أحنو على الأرض صدري لا يفارقها حتى تعانقها من بعد أضلعه

ويقول محمود درويش:

هذه الأرض جلد عظمي وقلبي فوق أعشابها يطير كنحلة

أما الوطنية في نظر القائد الخالد حافظ الأسد فتعني أن نحب وطننا، وأن نخلص له، وأن نذود عنه دون تردد أو تخاذل، وأن نرفض كل إساءة توجه إليه، وأن نواجه بكل كفاءة وتصميم كل تحد يواجهه.

الوطنية تعني أن نكون غيارى على كل ما في الوطن، على الإنسان والأرض، على كل شجرة وعلى كل قطرة ماء، على كل بيت ومدرسة، على كل درب وشارع في قرية أو مدينة، على كل زهرة ووردة في طريق أو حديقة، أن نكون غيارى فنحافظ ونصون ونحسّن كل شيء فوق أرض هذا الوطن وتحت سمائه.

الوطنية تعني أن نستثمر الوقت، كل في عمله بشكل دقيق ومنظم. إن التفريط في الوقت خطأ كبير كالتفريط بأي شيء ثمين.

الوطنية تعني أن نبني دون توقف، أن نتابع بناء الأرض والإنسان، وأن ندفع أمورنا دائماً نحو الأفضل.

الوطنية تعني أن تكون جاهزيتنا للتضحية بأعمق معانيها ذات وتيرة عالية جداً من جهة، ومستمرة غير منقطعة من جهة أخرى.

إن الوطنية تعني الجهد والعرق والتضحية والاستشهاد عندما يتطلب الأمر ذلك، لأن الوطن يعني الإنسان والمكان معاً، يعني الإنسان والأرض متلازمين، وعندما لا يدافع الإنسان عن الوطن فهو لا يدافع عن ذاته، وهذا من اللامعقول، فالوطن غال، والوطن عزيز، والوطن شامخ، لأن الوطن هو ذاتنا.

فلنؤكد ولنعمل من أجل ترسيخ الوطنية وتنميتها لأننا بذلك نرسخ القيم ونتحرك بفاعلية نحو الحياة الأفضل.

إن الدعوة إلى ترسيخ الوطنية وتنميتها يتطلب التربية على المواطنة فما التربية على المواطنة بعد أن تعرفنا مفهوم المواطنة والوطنية؟

إن التربية على المواطنة هي عملية تنشئة اجتماعية، ذلك لأن المواطنة المستنيرة والمسؤولة والملتزمة بالمبادئ الديمقراطية والمشاركة في ممارسة الديمقراطية بصورة فعالة ونشطة لا يمكن أن تتأتى إلا بالتربية والتعليم، فالتعليم أساس الحقوق المدنية في الألفية الثالثة، وهو

مطلب سياسي لتنمية الشعور بالمواطنة، وإشاعة الديمقراطية والتحرر من جميع أشكال العبودية والتخلف والتبعية.

وبناء الفرد المتكامل والمتوازن في جوانب شخصيته فكرياً وروحياً واجتماعياً وإنسانياً، والواعي لحقوقه والملتزم بواجباته، والمواكب لروح العصر، والصوفي في محبة وطنه، والمؤمن بحقوق الإنسان ومبادئ العدالة والمساواة والخير للناس كافة، والقادر على الإنتاج والتنمية والمبادرة المبدعة، والمعتز بانتمائه إلى وطنه وأمته، والمتحلي بالروح العلمية والموضوعية والسلوك الديمقراطي، والمتسم بالوسطية والتسامح والاعتدال، والمتفائل دائماً، ذلك كله لا يتم إلا بالتربية.

فالتربية على المواطنة هي:

. تربية على ثقافة أداء الواجبات قبل أخذ الحقوق.

. تربية على حقوق الإنسان والديمقراطية عبر منهجية شاملة تربط بين الفكر والوجدان والأداء.

ـ تربية على التعاطف والمشاركة المجتمعية والغيرية والمحبة والعدالة والتواصل الاجتماعي والتفاعل الإيجابي.

. تربية على ثقافة التسامح والحوار والسلام.

. تربية على المبادرة وخلق فرص عمل جديدة لا على التكيف مع البيئة فقط.

. تربية على الأسلوب العلمي، والتفكير النقدي في المناقشة والبحث عن الوقائع والأدلة.

ـ تربية على المشاركة في تحمل المسؤولية، وعلى الشعور بالمسؤولية تجاه حقوق الأفراد والجماعات.

. تربية على تماسك المجتمع ووحدته الوطنية والعمل المشترك.

. تربية على التحلي بالتفاؤل تجاه مواجهة التحديات ومحاولات التيئيس والتثبيط وغرس روح الانهزامية.

. تربية على عزة النفس وكرامتها وقوة الإرادة.

إن التربية على المواطنة تجد مشروعيتها وتبريرها داخل وعي الإنسان، بما يسمح للجميع بالتعايش وحق الوجود ومشروعية الاختلاف، وإن قيمها ترتبط بعملية التربية والتنشئة الاجتماعية لأنها عملية تواصلية وتفاعلية قبل أن تكون قواعد وقوانين ينبغي الالتزام بها، على أن التشبع بهذه القيم وترسيخها وممارستها لا يتم بطريق تعميق العاطفة الوطنية أو تعلمها فحسب، وإنما يتم بالاحتكاك ومعايشة المواقف والاتجاهات الإيجابية.

ثانياً . من قيم التربية على المواطنة في تراثنا الأدبي

إن التربية على المواطنة كما سبقت الإشارة تشتمل على منظومة من القيم، وهي قيم عرفت البشرية بعضها عبر مسيرتها، وهانحن أولاء نسلّط الضوء على بعض من هذه القيم في تراثنا الأدبي القديم والمعاصر بصورة خاطفة وسريعة، ومن هذه القيم حب الوطن والتعلق به، وخدمة الوطن والتضحية في سبيله، والحرية والعدالة والمساواة والتمسك بالوحدة الوطنية.

آ . حب الوطن والتعلق به والحنين إليه:

إن الوطن عزيز وغال، وما من أرض في الدنيا تعدل أرضه، ولكم يعز على المرء أن يدفن في أرض غير أرض آبائه وأجداده، ولقد حكي أن سيدنا يوسف عليه السلام أوصى أن يحمل نعشه إلى مقابر آبائه وأجداده، فمنع أهل مصر أولياءه من ذلك، فلما بعث الله موسى عليه السلام، وأهلك الله فرعون، حمله موسى إلى مقابر أهله فدفنه في الأرض المقدسة.

ويروى أن الاسكندر أوصى أن تحمل رمته في تابوت من ذهب إلى بلاد الروم حباً بوطنه.

وقال الجاحظ: كان نفر من البرامكة إذا سافر أحدهم أخذ معه تربة أرضه في جراب تداوى بها إذا ما ألم به مرض.

وما أرق قول بعضهم!

بــلاد ألفناهــا علــى كــل حالــةٍ ... وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن

ونستعذب الأرض التي لا هوا بها ... ولا ماؤهــا عــذبٌ ولكنهــا وطــن!

وكلنا يتذكر قول ميسون:

لبيــت تخفــق الأريــاح فيــه ... أحــبُّ إليَّ مــن قصــر منيــف

ولــبس عبــاءة وتقــرَّ عيــني ... أحــبُّ إليَّ مــن لــبس الشــفوف

فمــا أبغــي ســوى وطــني بــديلاً ... فحســبي ذاك مــن وطــن شــريف!

ويقول جميل بثينة:

أنــا جميــلٌ والحجــاز وطــني ... فيــه هــوى نفســي وفيــه شــجني

ولا يبتغي الشاعر جرير بداره داراً إذ يقول:

حــيّ المنــازل إذ لا نبتغــي بــدلاً ... بالــدار داراً ولا الجــيران جيرانــا

يــا حبــذا جبــل الرّيــان مــن جبــلٍ ... وحبــذا ســاكن الريــان مــن كانــا

وحبــذا نفحــات مــن يمانيــةٍ ... تأتيــك مــن جهــة الريّــان أحيانــا

وما أعذب قول ابن الدمينة:

ألا يـا صبا نجـد متى هجـت من نجـد ... لقـد زادني مسـراك وجـداً علـى وجـدِ

بكيـت كمـا يبكـي الوليـد ولم تكـن ... جليـداً، وأبـديت الـذي لم تكـن تبـدي

بكيـت كمـا يبكـي الحـزين صـبابةً ... وذبـت مـن الشـوق المـبرّح والصـدّ

وما أسمى قول ابن الرومي!

ولي وطــنٌ آليــت ألا أبيعــه ... وألا أرى غــيري لــه الــدهرَ مالكــا

ولكم تغنى أبو الفضل الوليد بمآثر وطنه إذ يقول:

تــذكرت الحمــى فــأدرت وجهــي ... إلى الــوطن الــذي فيــه ربينــا

كما يقول:

واطـرب وأطـربْ نفوسـاً شـاقها وطـنٌ فلـم تجـد وطنـاً يغـني عـن الـوطن

ويقول أيضاً في موضع آخر:

إلى وطـني أصـبو وأذكـر في النـوى حـلاوة عـيشٍ فيـه تـذكارها مـرُّ

ويهنئ من عاش بين أهله في وطنه قائلاً:

سعداً لمن عـاش بـين الأهـل في وطـنِ فراحـةُ القلـب في الـدنيا بـلا ثمـنِ

ويرى الصاحب بن عباد أن أفضل عز يناله المرء إنما هو في وطنه فيقول:

فـالعزُّ مطلـوبٌ وملـتمس وأعـزه مـا نيـل في الـوطنِ

وورد في كتاب الأغاني شعر ينسب إلى أبي عُيينة بن أبي عُيينة:

جسـمي معـي غـير أن الـروح عنـدكم فـالروح في وطـنٍ والجسـمُ في وطـنِ

فليعجـب النـاس مـني أن لي جسـداً لا روح فيـه، ولي روحٌ بـلا بـدنِ

وأما البعد عن الوطن فهو الحِمام عينه في نظر ابن الوردي:

ففـرط البعـد عـن وطـنٍ وأهـلٍ حِمـامٌ قبـل أن تلقـى الحِمامـا

وفي نظر ابن بابك أيضاً:

هـذي بقيـة نفـسٍ فارقـت وطنـاً وفرقـة الـنفس تتلـو فرقـة الـوطن

ولنستمع إلى أبي البقاء الرندي في قوله عن حمص:

وماشـياً مَرِحـاً يُلهيـه موطنـهُ أبعـد حمـص تغـرُّ المـرءَ أوطـان؟

ولا شيء يعدل الوطن في نظر أمير الشعراء شوقي حتى لو كان جنة الخلد:

هَـبْ جنـة الخلـد الـيمن لا شـيء يعـدِلُ الـوطن

ويقول أيضاً:

وطــني لــو شــغلت بالخلــد عنــه نــازعتني إليــه في الخلــد نفســي

وعندما عاد إلى وطنه بعد منفاه في الأندلس يقول:

يــا وطــني لقيتــك بعــد يــأسٍ كــأني قــد لقيــت بــك الشــبابا

وما أجمل قول الرافعي!

إني وإيــاك كــالمنفيِّ عــن وطــنٍ أيَّ الــبلاد رأى لم يُنســه الوطنــا

وما أنبل مشاعر عبد المجيد عرفة في حال بعده عن وطنه، فها هو ذا يقول:

إن غبــتُ عــن بلــدي يومــاً أذب ألمــاً ويكــبر الهــمَّ في جنــبيَّ والنــزقُ
فــلا تلمــني إذا روحــي بهــا التصــقت فــالروح بالجســم منــذ البــدء تلتصــق
وكــم تنــازعني شــوقي إلى بلــدي وكــم تنــاهبني التســهيد والأرق
أعــيشُ في غــربتي جســماً وفي وطــني يعــيش قلــبي، ومــا بالبعــد نفــترق

وما أشدّ تعلّق الشاعر المهجري رشيد أيوب بأرضه ونسيمها وأهلها، فلقد ضيّع قلبه في ترابها قائلاً:

خلقــت ولكــن كــي أمــوت بهــا حبــا لــذاك تــراني مســتهاماً بهــا صــبا
ومــا أنــا ممــن إن ترامــت بــه النــوى تروّعــه الــدنيا ولــو ملئــت رعبــا
ولكــنَّ لي في ســفح صــنين موطنــاً يعــزُّ علــيَّ أن أفارقــه غصــبا
إذا مــا ذكــرت الأهــل فيــه فــإنني لــدى ذكــرهم أستمطر الــدمع منصبا
فللّــه هاتيــك الربــا وربوعهــا فــإني قــد ضــيّعتُ في ترهــا القلبــا
ويــا حبــذا ذاك النســيم فإنــه لينعشــني ذاك النســيمُ إذا هبــا

ويقرن إبراهيم طوقان بين الدين وحب الوطن إذ يقول:

ديننــا حبــك يــا هــذا الــوطنْ ســرُّنا فيــه ســواءٌ والعلــنْ

كما يرى أمين تقي الدين أن حب الوطن واجب:

يـــرى حـــبَّ أوطانـــه واجبـــاً فقـــدّس في الـــنفس حـــبَّ الـــوطنِ

وما أسمى دعوة أمير الشعراء شوقي إلى حب الوطن إذ يقول:

كـن إلى المـوت علـى حـبّ الـوطن مـــن يَخُـــنْ أوطانـــه يومـــاً يُخَـــنْ

وإذا كان الوطن يشتمل فيما يشتمل عليه، على المكان الذي نشأ فيه الإنسان فما سمات هذا المكان حتى يغدو الإنسان متعلقاً به؟

إن المكـان يـؤدي دوراً هامـاً في تشـكيل وعـي الإنسـان فهـو البيـت والأرض والأم، والذكريات والطفولة وهو الماضي الذي نعشق.

إن المكان بيت لتكثيف الزمن، ولكن لا وظيفة واحدة له، بل وظائف منها دوره في تشكيل الوعي الذي غالباً ما يتحدد بحدود المكان الذي ينتمي إليه الإنسان، ثم الإحساس المرهف بحركة الزمن التي غالباً ما تتحدد أيضاً بحركة الإنسان في المكان، المكان الواحد لا الأمكنة، فالمكان ليس حيزاً جغرافياً فحسب، بل هو فضاء مفعم بالحياة أيضاً، هو حيّز له أبعاده وتخومه المحدودة من جهة، ومن جهة ثانية فضاء مفتوح على أبعاد وتخوم غير ثابتة، وتكاد تكون غير نهائية، وهو من جهة ثالثة فضاء فاعل تنهض بينه وبين سواه من مفردات الواقع علاقات جدل متعددة.

إن المكان يحدد الهوية، وهو أشبه بالأم، فهو مكان عاطفي محبوب له رتبة الحلم، وهو مولد للأشواق والحب الأزلي، ألم يقل الشاعر القروي:

إيـــاك يهـــوى الفـــؤاد يـــا أمنـــا مـــن دون كـــل الـــبلاد أنـــت المـــنى

ويقول الرصافي:

مـــواطنكم يـــا قـــوم أم كريمـــة تـدر لكـم منهـا مـدى العمـر ألبـانُ
ففـي حضـنها مهـدٌ لكـم ومبـاءَة وفي قلبهـا عطـف عليـكم وتحنـانُ
فمـا بـالكم لا تحسـنون، وواجـب علـى الابـن لـلأم الكريمـة إحسـانُ

ويقول بدوي الجبل:

هـــذا الأديم أبي وأمـــي والبدايـــة والمـــآب
ووسـائدي وقلائـدي ودمـى الطفولـة والسِـخاب
أغلـى علـيَّ مـن النجـوم ولا أُلامُ ولا أُعـابُ

إن الأرض أجساد الآباء والأجداد على حد تعبير حكيم المعرة في قوله:

خفـــف الـــوطء مـــا أظـــن أديم الأرض إلا مـــن هـــذه الأجســـاد
وقبـــيحٌ بنـــا وإن قـــدم العهـــد هـــوانُ الآبـــاء والأجـــداد

إنها دم الشهداء وقد سقى تربتها ليحيا الوطن ويزدهر خصباً ونماءً كما جاء في قول الشاعر «أبي سلمى»:

لا تقـــل هـــذا تـــرابٌ جامـــدٌ إنمـــا الأحيـــاءُ في هـــذا الجمـــادِ
واحفـــظِ الأجيـــال في هـــذا الثـــرى فالـــدمُ الحـــر مـــن الـــترب ينـــادي

إن المكـان مسـاحة محـددة مـن التضـاريس تتضـمن في فضـاءاتها وتحولاتهـا العـادات والتقاليد والموروثات المختلفة واللغة والطبيعة والإنسان.

وإن الشعراء الجاهليين صوروا الأمكنة التي عاش فيها الأحبة، ثم عنها ارتحلوا، لقد صوروا جبالها ووهادها، قفارها ومرابعها، نباتاتها وحيواناتها، أمطارها وسحبها، وشهدنا كيف كان ارتحال أهلها وما يخلّفون وراءهم، وما تؤول إليه ديارهم، وتعرفنا ببعض الصور الدقيقة عن الخيام والبيوت والنؤي والحجارة والأثافي.

إن هؤلاء الشعراء عندما كانوا يمرون بالأمكنة لم يكونوا ليقفوا عند دلالتها الجغرافية، وإنما يقفون عند دلالتها النفسية التي تحمل معاني الارتحال والتخييم والانطلاق والتوقف، والتي تتلامح من ورائها أشباح الأحبة وقد فرَّق بينهم النوى، وشحط بينهم البين. إنها لا تتصل بمخلفات هؤلاء الناس المرتحلين، بديارهم التي غادروا وآثارهم التي تركوا، وإنما تتصل بهؤلاء

الناس ذاتهم، بأنفسهم، بخفق قلوبهم والتياع عواطفهم، باليد التي تمتد إلى اليد، ثم لا تملك العين آن تنظر إلى العين كما صور ذلك أستاذنا المرحوم الدكتور شكري فيصل.

لقد أحب العربي أرضه، وارتبطت هذه الأرض كذلك بأحبته، فإذا هي جزء من نفسه، وإذا هي مرتع ذكرياته ومجتلى خيالاته، في كل مكان ذكرى، ولكل جبل أو واد معنى، ولكل أرض مذاق وطعم تبعاً للأحداث التي امتزجت بها أو كانت فوقها، يقول الشاعر:

جرى السيل فاستبكاني السيل إذ جرى وفاضت له من مقلتيَّ غروب
وما ذاك إلا إذ تيقنت أنه يمرُّ بوادٍ أنتِ منه قريبُ
يكون أجاجاً دونكم حتى إذا انتهى إليكم تلقى طيبكم فيطيبُ
أيا ساكني شرقي دجلة إنكم إلى القلب من أجل الحبيب حبيبُ

لقد قرن الشاعر نزار قباني المكان الذي نشأ فيه ومسقط رأسه «الشام» بالولادة وبالسكن وبالماء وبالعشق وبالورود وباللؤلؤ وبالحزن إذ يقول:

مسقط رأسي في دمشق الشام
هل واحد من بينكم
يعرف أين الشام؟
هل واحدٌ من بينكم
أو من سكنى الشام؟
رواه ماء الشام
كواه عشق الشام
تأكدوا يا سادتي
لن تجدوا في كل أسواق الورود وردة كالشام
وفي كل دكاكين الحلي جميعها

لؤلؤة كالشام

لن تجدوا مدينة حزينة العينين مثل الشام

ولكم يستعذب الشاعر تكرار لفظ الشام:

شـــام يـــا شـــام يـــا أمـــيرة حـــبي كيـــف ينســـى غرامـــه المجنـــونُ

ويتغنى بدمشق قائلاً:

قمـــرٌ دمشـــقي يســـافر في دمـــي وبلابـــل وســـنابل وقبـــاب
الفـــل يبـــدأ مـــن دمشـــق بياضـــه وبعطرهـــا تتطيّـــب الأطيـــابُ
والمـــاءُ يبـــدأ مـــن دمشـــق فحيثمـــا أســـندت رأســـك جـــدول ينســـابُ
والشـــعر عصـــفور يمـــد جناحـــه فـــوق الشـــآم وشـــاعر جـــوّاب
والخيـــل يبـــدأ مـــن دمشـــق مســـارها وتشـــد للفـــتح الكبـــير ركـــابُ

ولم تكن دمشق مسقط رأس الشاعر بجمالها مصدر إلهام الشاعر الدمشقي نزار قباني فقط، وإنما استهوت شعراء كباراً قصدوها فها هو ذا الشاعر محمد بهجة الأثري يقول:

هـــذه جلّـــق تبـــارك ربي! بلـــد طيـــب وربٌّ غفـــورُ
الهـــوى والهـــواءُ والجـــدول الرقـــراقُ والـــروض والســـنا والحُـــورُ
حيثمـــا تغتـــدِ، فـــروض أريـــضٌ عنـــبريُّ الشـــذا، ومـــاءٌ نميـــرُ
وظـــلالٌ ممـــدودة وهـــي تنـــدى وشـــعاع يـــرِفُ، وهـــو منـــيرُ
مـــن ســـنا الشـــمس فوقهـــا، ومـــن الزهـــر دنـــانيرُ عســـجدٍ، وعبـــيرُ

وها هو ذا أمير الشعراء شوقي يؤمن بالله ويستثني من الإيمان جنته لأن دمشق هي الجنة إذ يقول:

آمنـــتُ بـــالله واســـتثنيت جنتـــه دمشـــق روح وجنّـــاتٌ وريحـــانُ

ب . خدمة الوطن والتضحية في سبيله:

طالما وردت هذه القيمة في أدب شعرائنا المعاصرين، وطالما دعا إليها أمير الشعراء شوقي وعززها إذ يقول:

لنـــا وطـــنٌ بأنفســـنا نقيـــه وبالـــــدنيا العزيـــــزة نفتديـــــه

ويقول أيضاً:

خـدموا حمـى الـوطن العزيـز فبوركـوا خـدماً وبـورك في الحمـى مـن سـيّد

ويقول طاهر الحداد التونسي في ندائه وطنه:

أفـديك يـا وطـني أفـديك يـا سـكني بـك اعتـزازي وفيـك اليـوم آمـالي
أفـديك يـا وطـني بـالنفس والمـالِ ممـا يسـومك سـوءاً فيـه إذ لالي
لا عـيش لي أبتغـي إن لم يعـش وطـني في عـــزةٍ ورخـــاءٍ هـــانئَ البـــال

ويرى خليل مطران أن لا ارتقاء لوطن بغير فداء وتضحية:

المفتـــدي الـــوطنَ العزيـــزَ بروحـــه هـــل يرتقـــي وطـــنٌ بغـــير فـــداءِ؟

وفي المعنى نفسه يقول الزهاوي:

لا يرفـع الـوطن العزيـز سـوى امـرئٍ حـــرٍّ علـــى الـــوطن العزيـــز يغـــارُ

وإن الوطن ليفخر بمن يفديه على حدّ تعبير الكاظمي إذ يقول:

مـــن كـــان مثلـــك فاديـــاً أوطانـــه فبمثلـــه الـــوطن العزيـــز فخـــورُ

ويقول علي الجارم:

نحيـــي المـــرء إن نجـــىّ حيـــاةً فكيـــف إذا نجـــا الـــوطن المفـــدى؟!

ويرى أحمد تقي الدين أن في تقاعس المواطنين عن خدمة أوطانهم ما يغري الأعداء في السيطرة على الوطن فيقول:

إذا مـــا نـــام عـــن وطـــنٍ بنـــوه تملكـــت العـــدى فيـــه الحصـــونا

وإن الدم ليرخص في الدفاع عن الوطن كما يرى الغلاييني:

لعمري وما عمري سوى حبّ موطنٍ لأجـــل هـــواه يـــرخص الـــدم غاليـــا

وها هي ذي النفوس الحرة تفدي أوطانها كما يرى أنور العطار:

هذه أوطاننا نحمي حماها

أي قلب لم يتيمه هواها

أي نفس حرة ليست فداها.

ج . الحرية:

وهي من أسمى قيم التربية على المواطنة، إذ لا وطن من غير حرية:

فمـــا يعـــيش بـــلا حريـــة وطـــنٌ وهـــل يعـــيش بغـــير المهجـــة البـــدنُ

وهي عميقة الجذور في تراثنا العربي الإسلامي، حافظ عليها القرآن الكريم، فصان حرية الاعتقاد فقال مخاطباً نبيه الكريم (ص): «وقلِ الحقُّ من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر». ويقول: «فذكّر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر». ويقول: «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين». وهذه الآيات تقرر حرية الإنسان في الاعتقاد، فهو حر في أن يعتنق الإسلام، لكنه إن أعرض فليس من حق الرسول أن يجبره على ذلك.

وما تزال صيحة الخلفية الفاروق ترددها الأجيال: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

لقد حافظ الإسلام على قيمة الحرية للبشر كافة من دون تمييز أو استثناء، حافظ على حقهم في الحياة والتمتع بالطيبات والحق في حرية الاعتقاد، والحق في الاختلاف، ومن

دون هذه الحقوق لا يستكمل الشخص البشري وجوده. حتى إن الطير لا يحيا بغير حرية، وإننا لنتذكر في هذا المجال تصوير الشاعر عمر أبي ريشة لبلبل في قفصه، وكيف أنه لم يبنِ عشاً في ذلك القفص على الرغم من أن جميع مستلزمات الحياة المادية كانت متوفرة لديه فيقول:

ألفيتُـــــه ينثـــــر ألحانـــــه كأنمـــا ينثـــر مـــن كبـــده

فعـــــاف دينـــــاه ولم يتخـــــذ عشـــاً ولم يحمـــل ســـوى زهـــده

أبى عليـــــه الكـــــبرُ أن يـــــورث الأفـــراخ ذل القيـــد مـــن بعـــده

ولله در الشاعر الماغوط إذ يقول:

إيه حريتي

إذا لم تكوني

ووهبتُ الدنيا

فإني أحجم.

د . العدالة والمساواة:

عندما سئل مدير إحدى الشركات الناجحة جداً في أمريكا عن سرّ نجاح شركته أجاب: إن السبب يرجع إلى أربعة عوامل هي:

1. الصدق مع النفس ومع الآخرين.
2. تحقيق العدالة بين العاملين والمرؤوسين.
3. إتقان العمل والانتماء القوي إلى مكان العمل.
4. الحرص على السمعة الطيبة.

ويسأل أحدنا: أي صدق يعلو على أن يكون المرء صادقاً مع وطنه؟ وأي عدالة ومساواة أسمى من المساواة بين المواطنين في ضوء قدراتهم وكفاياتهم في منأى عن الأمراض الاجتماعية من طائفية ومذهبية وعشائرية وعائلية وقبلية وإقليمية؟

وأي انتماء فوق الانتماء للوطن تعلقاً به ومحبة صافية له واندفاعاً في سبيله وذوداً عن حماه، وحرصاً على سمعته في كل المواقف والأحايين؟ وعلى الصعيد الوطني يؤدي تحقيق العدالة والمساواة بين المواطنين في منأى عن أي تحيز أو ميل أو هوى إلى وحدة وطنية حقيقية، تحمي الوطن، وتذود عن الحمى، وترد كيد الأشرار والطامعين فيه، فها هو ذا الغلاييني يقول:

إن الرجـــال إذا عـــدوا سواســـية في مـوطن الأمـن زالـت عـنهم المحـنُ

ولقد حققت الحضارة العربية الإسلامية المساواة بين الناس، ولم تكن الوظائف تسند إلا للمستحق الكفي في منأى عن عقيدته ومذهبه، ويقول «مارك سايس» في وصف هذه الحضارة في عهد الرشيد: «كان المسيحيون واليهود والوثنيون والمسلمون على السواء يعملون في خدمة الحكومة».

وعلى هذا النحو كانت الحلقات العلمية الشعبية، إذ كان العلماء فيها على قدم المساواة بصرف النظر عن مذاهبهم وعقائدهم، قال خلف بن المثنى: لقد شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يعرف مثلهم في الدنيا علماً ونباهة وهم الخليل بن أحمد صاحب النحو (وهو سني) والحميري الشاعر (وهو شيعي) وصالح بن عبد القدوس (وهو زنديق) وسفيان بن مجاشع (وهو خارجي صفري) وبشار بن برد (وهو شعوبي) وحماد عجرد (وهو زنديق شعوبي) وابن رأس الجالوت الشاعر (وهو يهودي)، وابن نظير المتكلم (وهو نصراني)، وعمر بن المؤيد (وهو مجوسي) وابن سنان الحراني الشاعر (وهو صابئي)، وكانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار، ويتناقلون الأخبار، ويتحدثون في جو من الود لا تكاد تعرف منهم أن بينهم هذا الاختلاف في عقائدهم ومذاهبهم.

كما يعود تحقيق العدالة والمساواة بين المواطنين من جهة أخرى على الحاكم نفسه بنعمة الاستقرار والأمان، ولا يغيَبنّ عن الذهن قصيدة حافظ إبراهيم في الخليفة الفاروق عندما قدم إليه رسول من ملك الفرس كسرى فراعه ما شاهد من حال الخليفة فيقول الشاعر حافظ إبراهيم مصوراً هذه الحال:

وراع صاحب كسرى أن رأى عمراً ... بين الرعية عطلاً وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أن لها ... سوراً من الجند والأحراس يحميها
رآه مستغرقاً في نومه فرأى ... فيه الجلالة في أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملاً ... ببردة، كاد طول العهد يُبليها
فهان في عينه ما كان يكبره ... من الأكاسر والدنيا بأيديها
وقال قولة حق أصبحت مثلاً ... وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمِنت لما أقمت العدل بينهم ... فنمتَ نوم قرير العين هانيها

هـ التمسك بالوحدة الوطنية:

من القيم التي تسعى التربية على المواطنة إلى تعزيزها في النفوس التمسك بالوحدة الوطنية، ونبذ كل ما يفرّق بين أبناء الوطن، والثورة عليه، والعمل على استئصاله من النفوس والعقول، وهذه القيمة تدعو إليها الديانات السماوية وتعززها، وإن انتهاج أي سلوك يجانفها إنما هو بعيد كل البعد عن الدين وقيمه وعز الوطن ومثله، يقول الرصافي:

إذا جمعتنا وحدة وطنية ... فماذا علينا أن تعدد أديانُ
إذا القوم عمتهم أمور ثلاثة: ... لسان وأوطان وبالله إيمان
فأي اعتقاد مانع من أخوة ... بها قال إنجيلٌ كما قال قرآن
فمن قام باسم الدين يدعو مفرّقاً ... فدعواه في أصل الديانة بهتانُ

وما أسمى ما دعا إليه عمر أبو ريشة في قوله:

يا من يفرّق بين أكباد الورى ... باسم الشرائع أنت أكبر مجرم

مـــا الـــدين إلا شـــعلة وضّـــاءة بزغـــت علـــى أفـــق الأنـــام المظلـــم

ثالثاً. ملاحظات على بعض جوانب التربية على المواطنة

بعد عرضنا السابق نسأل: ما واقع التربية على المواطنة في مناهجنا التربوية؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه بإبداء عدد من الملاحظات على هذا الواقع، وتتجلى هذه الملاحظات في جزئية النظرة إلى أهداف التربية على المواطنة، والقصور في تقديمها في مناهجنا، والنقص في الكفايات الأساسية للتربية على المواطنة، وسيطرة التربية المستبد،ة وغياب التنسيق بين الجهات المعنية.

1. جزئية النظرة إلى أهداف التربية على المواطنة

لما كانت التربية على المواطنة ومن أجلها تهدف إلى تزويد الناشئة بالخبرات، كانت الخبرة المنشودة في هذا السياق ثلاثية الأبعاد فكراً ونزوعاً وسلوكاً، أو معرفة ووجداناً وأداء.

ففي الجانب المعرفي لا بدّ من أن يتعرف الناشئ هويته وانتماءه وعلم بلاده، ونشيدها لوطني، والمناسبات الوطنية، وتاريخ وطنه، وجغرافيته وتراثه ولغته، ودستوره وأنظمته، وحقوق الإنسان: طفلاً وامرأة وذوي الحاجات الخاصة، وعلاقات وطنه مع الأوطان الأخرى، والتحديات التي تواجه وطنه... الخ.

ويتضمن البعد الوجداني من الخبرة في هذا السياق حزمة من المشاعر والقيم والمواقف والاتجاهات: اعتزازاً واحتراماً وحرصاً وانتماءً ومحبةً وتعلقاً من مثل: حب النظام والعدل والمساواة، والإحساس بالكرامة، والشعور بالمسؤولية، والإحساس بالاستقلال، واحترام القوانين والأنظمة، واحترام التعددية، والتعلق بالقيم الإنسانية... الخ.

أما الجانب الأدائي فيتمثل في السلوك والممارسة والانسجام بين القول والعمل، والمبدأ والتطبيق والدعوة والممارسة، والتعبير عن المواقف والمشاركة في اتخاذ القرارات، ووضع الحلول، وقبول التعددية والاختلاف، والدفاع عن حقوق الآخرين، والمحافظة عليها حفاظه على حقوقه، ونبذ التعصب والعنصرية، والتمرد على أي خلل يكتنف المصلحة العامة... الخ.

وثمة من يفرق بين ثلاثة مفاهيم في مجال التربية على المواطنة وهي:

1ـ التربية عن المواطنة وهو ما يتعلق بتقديم المعرفة عن التاريخ الوطني وبنية الحكومة وعملياتها والحياة السياسية... الخ.

2. التربية من خلال المواطنة وهو ما يتعلق بإشراك الناشئة في أنشطة التعليم بالعمل والخبرات التشاركية في المدرسة والمجتمع المحلي.

3ـ التربية من أجل المواطنة أو على المواطنة، وتشمل الخبرة بأبعادها المتعددة: فكراً ونزوعاً وأداءً، معرفة وفهماً ومهارات وقيماً.

والقضية الأساسية في هذا المجال أنه من السهولة تنفيذ التربية عن المواطنة من خلال المناهج وأساليب التدريس، ولكن من الصعوبة بمكان تحقيق التربية من أجل المواطنة. إنها تربية ذات أبعاد محلية وعالمية في الوقت نفسه، ولا تقف على الجانب المعرفي وحده، وإنما تتجاوزه إلى النقد والتفكير الناقد، ولا تركز على الثقافة السياسية وحدها، وإنما تركز على القيم الإنسانية.

والتربية من أجل المواطنة لا يمكن تعلمها من الكتب والمقررات الدراسية وحدها، بل تعتمد في الدرجة الأولى على الممارسات والتطبيقات التي تجري في المدرسة والبيئة المحلية أسرة ومجتمعاً، إذ لا يكفي على الإطلاق أن يعرف المواطنون مبادئ المواطنة ومعناها الحقيقي، وما يترتب عليها من حقوق وتأدية للواجبات، بل يجب أن يقوم هؤلاء المواطنون بالممارسة العملية بالفعل على أرض الواقع.

2. القصور في تقديم التربية على المواطنة في مناهجنا التربوية

ثمة قصور في تقديم موضوعات التربية من أجل المواطنة في مناهجنا التربوية، إذ إن التركيز ينصب على الجانب المعرفي، وطريقة التدريس تعتمد التحفيظ والتسميع، أما التقويم فلا يقيس إلا المستوى الأول من مستويات المعرفة متمثلاً في الحفظ والتذكر والاسترجاع.

إن التربية على المواطنة لن تتحقق أهدافها إلا بالتركيز على المشاركة بما فيها التركيز على القيم والأعمال المجتمعية والتركيز على المسؤولية الاجتماعية والأخلاقية ثقةً بالنفس وسلوكاً مسؤولاً أخلاقياً واجتماعياً في داخل الصف وفي خارجه وتجاه الآخرين، والتركيز على المشاركة المجتمعية وتقديم الخدمة للمجتمع، إضافة إلى الوعي السياسي متمثلاً في أساليب حل النزاعات واتخاذ القرارات... الخ.

والدرس الناجح في مجال التربية على المواطنة هو الدرس الزاخر بالأنشطة المشجعة على التأمل والتفكير والبحث عن مصادر المعلومات كأن يطلب إلى الناشئ: صمّمْ، قارن أو وازنْ، علّقْ، ابحثْ، اكتبْ، تحققْ... الخ، وذلك كله في جو من التشويق والإثارة العلمية واستخدام التقنيات والوسائل، بحيث يفسح في المجال للناشئة لأن يشاركوا، ويناقشوا، ويمارسوا، ويعملوا، متعاونين ومتضامنين ومشاركين، وقديماً قال «كونفوشيوس»: «لا يمكن للمرء أن يحصل على المعرفة إلا بعد أن يتعلم كيف يفكر».

كما أن المناهج التربوية بمفهومها المنظومي الشمولي المتكامل لا تقتصر فيما تقدمه على ما يجري في داخل الصفوف، وإنما تتجاوزه إلى البيئة المحلية، وإلى ما يجري في العالم، ولا بدّ أن تكون المناشط التي يتفاعل معها الناشئة شاملة لمختلف هذه الأبعاد: ممارسة ومشاركة وزيارات على جميع الصعد تجسيداً لمفهوم المواطنة من حيث إنها مجموعة من الممارسات الحية المتحركة التي تشمل الممارسات المدنية والقانونية والثقافية والتربوية... الخ.

ومن هنا كان تطوير المناهج التربوية يستلزم تحليل محتوى المناهج بغية تعزيز الإيجابي منها في كل المراحل وفي جميع المواد الدراسية، واستدراك غير الموجود، والتركيز على الأنشطة المتعلقة بالموضوع، والربط بين النظري والعملي، والتركيز على الممارسات، وتطوير طرائق التدريس وأساليب التقويم، والعزوف عن اللفظية والتلقين إلى المشاركة والممارسة والحياة النابضة الزاخرة بالمناشط والفعاليات، ورحم الله سعد زغلول إذ يقول: «الوطنية الصحيحة تعمل ولا تقول».

3. النقص في الكفايات الأساسية اللازمة للمواطنة الحق

إذا كانت التربية على المواطنة أو من أجلها تتضمن مجموعة من المبادئ والقيم والتوجهات والممارسات، يتمثل بعضها في الشراكة مع المجتمع والاحترام المتبادل بين المواطن والدولة، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، والتسامح، والحوار، وقبول الآخر، والتنوع، والتعددية، واللامركزية، وممارسة الحقوق، وتأدية الواجبات وتكافؤ الفرص والمساواة بين الأفراد، وعدم التمييز، والعدل واحترام القانون، والتفكير العلمي والنقدي والإبداعي، والمشاركة والعمل التطوعي والتعارف والالتزام، وروح المسؤولية، وإتقان العمل، والمشاركة في اتخاذ القرار، واحترام الإبداع العلمي وتقديره والتنمية المستدامة... الخ فإن هذه التربية لا بدّ لها من إكساب المواطن الناشئ الكفايات الأساسية التي تمكنه من أن:

. يؤدي واجباته، ويتمسك بحقوقه، ويؤمن بمبادئ العدالة الاجتماعية.

. يتحمل المسؤولية، ويمارس الأساليب العقلانية في التفكير والحوار.

. يمارس النقد، ويشارك في اتخاذ القرار.

. يعمل بروح الفريق، ويمارس العمل الجماعي والتطوعي في حياته.

. يؤمن بالوحدة الوطنية على أنها ضرورة حتمية للتقدم.

. يعتز بانتمائه إلى وطنه وأمته.

. يهتم بمشكلات وطنه، ويحمي إنجازاته، ويحافظ على استقراره.

. يتمثل القيم العلمية من مثل الأمانة والموضوعية وحب الاكتشاف والمثابرة.

. يقدر المصلحة العامة، ويقدمها على مصلحته الخاصة، ويضحي من أجل الصالح العام.

. يؤمن بالتعددية في إطار الوحدة الوطنية، ويوظفها في مصلحة الوطن.

. يتقبل الآخر، ويقدر رأيه، ويحترم وجهات النظر الأخرى في منأى عن أي تشنج أو تعصب أو تزمت.

. يتحلى بالخلق الرفيع.

. يتقن عمله.

ولتحقيق هذه الكفايات لا بدّ من:

آ . المران والممارسة والتدريب.

ب . الفهم وإدراك العلاقات في منأى عن التدريب الببغائي.

ج . توافر القدوة الحسنة من المشرفين والمدربين والمعنيين.

د . توفير التشجيع والتعزيز للممارسات الإيجابية.

هـ . التوجيه إلى مواضع الخلل في الأداء، والعمل على علاجها.

و . سيرورة القيم الإنسانية في أجواء المدرسة والجامعة محبة ورفقاً وتسامحاً وتشجيعاً... الخ.

4. سيطرة التربية المستبدة يحول دون تحقيق الأهداف

من الملاحظ أن الأجواء التي يتفاعل معها الناشئة في الأسرة والمدرسة والجامعة والمجتمع لا تمارس فيها الأساليب الديمقراطية في الأعم الأغلب، فالأب يفرض رأيه على أولاده، ويحول دون مناقشتهم والاستماع إلى وجهات نظرهم، والمعلم يفرض رأيه على ناشئته، ويعاقب

من يخالف ما يؤمن به، ولا يستطيع النقاش والحوار لأنه أَلِف أساليب التلقين والحفظ وامتثال ناشئته لآرائه. والمناهج التربوية تبنى من وجهة نظر الكبار وفي منأى عن حاجات الناشئة واهتماماتهم ورغباتهم وميولهم، والمدرس في الجامعة أو المعهد يقدم مقررات يحاسب طلابه إن هم خرجوا عنها في الامتحانات.

وهذه الأساليب المستبدة تحول دون تفتح الحرية والاستقلال والثقة بالنفس والمبادرة، وتعوّد الناشئة على التظاهر والمداهنة والرياء والامتثال والإذعان، وفي ذلك خطر وأي خطر على تكوين شخصيات هشة تعد عامل هدم في صرح المجتمع، ولا يعتمد عليها في الملمات بسبب عدم بنيانها البنيان السليم والمتوازن والقوي والواثق من نفسه.

5. غياب التنسيق بين الجهات المعنية

إن التربية على المواطنة شأن مجتمعي، وعلى جميع البنى الاجتماعية والهياكل أن تضطلع بدورها في ترسيخ مفاهيم التربية على المواطنة ومبادئها وفي التدرب على ممارستها.

ويستدعي ذلك وضوح الرؤية، وتحديد الأهداف، والانطلاق من استراتيجية واحدة، والتنسيق بين جميع المؤسسات الاجتماعية أسرة ومدرسة وجامعة وإعلاماً ومجتمعاً، والتنسيق بين التعليم النظامي وغير النظامي واللانظامي، والتنسيق بين القطاع العام والخاص والجمعيات الأهلية، وللأم دور كبير في إرضاع أبنائها حب الوطن والتضحية في سبيله وللقدوة الحسنة من المسؤولين كافة في مواقعهم أنّى كانت دور كبير في ترسيخ التربية على المواطنة.

وتعد عملية التنسيق من الأهمية بمكان لأن البناء لا يمكن له أن يرتفع إذا ما وضعت لبنة من طرف وتعرض البناء إلى هدم لبنات أُخر من طرف آخر.

ورحم الله شاعرنا العربي إذ يقول:

وهل يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرُك يهدم؟

«يروى أن أحد وزراء فرنسا في عهد الملك «لويس السادس عشر» طلب إلى الملك أن يعفو عن قريب له كان قد ارتكب خطأ بحق البلاد، فصرفه الملك بلطف بعد أن أفهمه أن استجابة طلبه غير ممكنة.

وفي اليوم التالي عاد الوزير يطلب العفو مجدداً قائلاً للملك:

. مولاي إنني بإلحاحي على جلالتكم أقوم بواجبي نحو قريبي المتهم، فأجابه الملك:

. وأنا بعدم استجابتي لطلبكم، أقوم بواجبي نحو قريبي الواجب الوطني».

رابعاً. من آليات التنفيذ

لما كان تحقيق التربية من أجل المواطنة يستلزم عملاً دؤوباً يشمل مجالات مختلفة تطلب ذلك تضافر الجهود واعتماد آليات متعددة للتنفيذ ومنها:

1. إقامة دورات تدريبية للمعنيين من معلمين وموجهين ومشرفين... الخ.
2. عقد ورشات عمل، واستخدام الطرائق الحديثة في التنفيذ من مثل الزيارات والعصف الدماغي ولعب الأدوار والمقابلات... الخ.
3. وضع أدلة ومطويات ونشرات في مجال التوعية للأهلين والمعلمين والمعنيين كافة.
4. تشريب المناهج التربوية في المراحل كافة، وفي المواد كافة، وفي مناهج محو الأمية بمفاهيم التربية على المواطنة، ووضع مواد مستقلة لها مع النمو الفكري للناشئة.
5. تشجيع الناشئة على الانضمام إلى الجمعيات والأندية في المدارس والجامعات والاشتراك في الاجتماعات، مع تنويع المناشط «رياضية كانت أو اجتماعية أو ثقافية... الخ».
6. تشجيع المبادرات الإيجابية ونشر ثقافة العمل التطوعي والتدريب عليه في ميادين متعددة «نظافة الحي والشارع والبيئة المحيطة، تنظيم المرور، ترميم المباني، الإسهام في عمليات محو الأمية، العناية بذوي الحاجات الخاصة... الخ».

7- إسهام وسائل الإعلام والنشر في مجال التوعية بالتربية على المواطنة من حيث إقامة الندوات وتقديم المسلسلات والمسرحيات... الخ.

8. إسهام المؤسسات الدينية ودور العبادة في مجالات التوعية بحيث يشتمل الخطاب الديني المستنير على ترسيخ مبادئ هذه التربية وانتهاج السلوكات الصحيحة في ميدانها.

9. توظيف بعض أشكال التعبير الفني والجماهيري في ترسيخ التربية على المواطنة.

10. الإكثار من الزيارات الميدانية للمواقع الأثرية وصروح الوطن الحضارية وتبادل الزيارات.

11. الاهتمام بالمكتبات المتنقلة في المناطق النائية وبالمسرح الجوال، وتزويد المكتبات المنزلية والمدرسية والجامعية بالنشرات والكتب والمطويات والأشرطة الرامية إلى تعزيز التربية على المواطنة.